الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما في الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

العَرْض : إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً في العرض العسكري ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام القائد ، ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعني : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فالحق سبحانه يقول : عرضت الأمانة على خَلْقي كلّ خَلْقي ، ومنه الإنسان والحيوان والجماد والنبات لأرى مَنْ منهم سيقبل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال .. إلخ مُسَيَّرة مقهورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبارة فنقول هي مقهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه . [القاموس القويم ١/٣٧٩] وهو قول مجاهد ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٣) . وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، رواه ابن جرير .

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصَكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تَعُدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصِرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ - مع أنك مختار - إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك فى متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) ﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿ **عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** .. (١٦) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا** .. (١٩) ﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** .. (١٠) ﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكن الذى امتــاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبـيحُه تسبـيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخــالق ســبحــانه هو الذى يــخاطب مــا يشــاء من خَلْقــه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجـمادات لخاطبتــها ، وتأمل مثلاً قـصة الهدهد وسيدنا سليـمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعـبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فــأرحْ نفسك وانْسبْ الفـعل إلى فـاعله وأنت تستـريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شىء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفـاعل أولاً ، فعليـه ستبنى حكمك وقـرارك ، فإنْ كان الفـاعل ابنَ الجيران مثـلاً تقيم الدنيا ولا تُقعـدها ، وإنْ قال لك : عـمِّى فلان ضـربنى تهدأ أعـصابك ، وتـقول للولد : لا بُدَّ أنك فـعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفـعل الواحـد يمكن أنْ يكون سيـئـاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعـضها بعضاً ، وتسعـفنا فى هذه المسألة ، فالذى قال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] قال ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل شىء فى الوجود كله مُـسبِّح ، فدلَّ هذا على أن المـوجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبـين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلمـاء حـين يقـول : هذه دلالة حال ، لا دلالـة مقـال ، وهذا القول يرده قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه فى انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفى اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعانى فى لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بنى جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى فى الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق فى الدلالة يتفق عليه الجميع فى كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءً تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربى ، ولا بكاء فرنسى مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أى : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء فى قوله تعالى فى معنى الحَمْل : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ..** (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثَلهم عند الله كمثل الحمار الذى يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا فى حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعى البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمل . فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبه الحمار فى هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار فى أمور أخرى يفهم ويؤدى مهمته على الوجه الذى ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذى سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان . إذن : مَن الغبى ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلَّفوه بما لم يُكلِّفه الله به ، فالحمار خُلق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها فى الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدم على القفز ، فإنْ كانت فى مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرف مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشىء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّىء له ، ومثَّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله فى استقامته ، فإنْ أردته خُطَّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوَجه ، وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا العوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش فى بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالى يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل فى غير موضعه ، والشىء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذى به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدى إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفى المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة فى مكانه .

ومعنى : ﴿ **وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : خفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتى وقت الأداء فلا يؤدى ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتى فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، فى حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التى لا تعرف التصرف فى الأشياء ، وميزة الحيوان فى هذه الغريزة وفى عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ **كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة فى الظلم والمبالغة فى الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعها خيراً ، أو يجلب لها ضُرّاً ، فهذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعة لا حدودَ لها ، فهو عدو لنفسه ؛ لذلك قال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن أعظم الظلم الشرك بالله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنما يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسانَ بعد الظلم بأنه جهول ؛ لأنه يظلم نفسه ، وهذا يدل على الجهل وعدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ٧٣ ﴾

أولاً : يلفت أنظارنا أن الآية السابقة ذُيِّلَتْ بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقوله سبحانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحيماً) .

فالحق سبحانه غفور لمن ظلم ، ورحيم لمن جهل ، فالنسق

القرآنى مظهر من مظاهر رحمة الله ، والله سبحانه وتعالى عُلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفور رحيم ، لكن لا ينبغى أنْ تغرَّك صفات الجمال فى ربك - عز وجل - فتُقدِم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⦗٦⦘ ﴾ [الانفطار] أن الذى غَرَّ الإنسان بربه فعصاه أو كفر به اعتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هى التى أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المسألة ، فإنْ سُئل : ما غرَّك بربك ؟ يقول : كرمه ، وعندنا فى الفلاحين يسأل أحدهم الآخر : لماذا لا تطمئن فى صلاتك ، وتنقرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبله .

وفى الآية دقيقة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. ⦗٧٣⦘ ﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله فى الحكم ؟

قالوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿ لِيُعَذِّبَ .. ⦗٧٣⦘ ﴾ [الأحزاب] لام العاقبة ، فالحق سبحانه جعل التكليف ليتبعه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتيجة . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ⦗٨⦘ ﴾ [القصص]

فساعة التقطه آل فرعون التقطوه عليه السلام ليكون قُرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكن الذى حدث أنه صار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهى أن تفعل الشىء لمراد عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدلّ على غباء الذى فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعنى : وافق لسانه ما فى قلبه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون فى الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفى ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفى حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشرى يقتضى أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآنى هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى - كما ذكرنا - صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .


سُورَةُ سَبَإٍ